نذهب إلى البحر

رياض بيدس ❖

نذهب إلى البحر

كان البحر رائعًا امس. كان الزيب وسيظلّ رائعًا. اشتقنا إليه بعد هذه الحرب الضَّروس. مضى أكثرُ من شهر على غياب البحر عنّا والآن، بعد صمت المدافع ولو مؤقّتًا، نسارع إلى البحر. سعيد وجبرا يصطادان السمك، يمدّان الصنانير ويَسْحبان القرّاص، الذي يتأرجح وهو عالقٌ بالصنّارة. أحد الصيّادين يقول ممازحًا: «اشتاق إلينا القرّاصُ كثيرًا »

اشتاق السمكُ إلى الصيّادين، واشتاق الصيّادون إلى السمك والبحر. فلقد جعلتْنا هذه الحربُ الأخيرة نشتاق إلى كلّ ما هو جوهريّ. الخبز والماء والنبيذ والسمك والهواء. والآن، بعد كلّ هذا الشوق، وإلى أن تندلع الحربُ القادمة، نسارع إلى البحر ونصطاد السمكَ ونتمتّع ونسبح قليلاً ونراقب غروبَ الشمس ونأكل السمكَ ونشرب النبيذَ؛ ذلك لأنّه، كما اعتادت جدّتي لأبي أن تردِّد كلما شعرتْ بعارضٍ صحّي، «بدري مين بيعيش، بدري مين بيموت!»

ثلاثة وثلاثون يومًا - - -- -

٣٣ يومًا. كانت بعضُ الصواريخ الطائشة تَسْقط في البحر. وكانت الطائرات تقف على ارتفاع بسيط من سطح بحر الزيب الأزرق المسالم، وتقذف الصواريخ أسلحة حديثة لم يعهدْها السمكُ من قبل كان السمك مرعوبًا جدّاً، والناس كذلك. والآن، في هذه الهدنة التي «روحنتنا،» علينا أن نسارعَ ونذهبَ إلى الزيب ما استطعنا، لنتزوّدَ من جمال البحر اللانهائي في ساعاتِ الشدّة.

أيمكن احتمالُ الحياة في هذه البلاد التي لا تطاق من دون زيارةِ شاطئ الزيب؟

نون

نون لا تَظْهر. نون تختفي، لا بل تُمْعن اختفاءً. بعد كلّ هذه الحرب، ألا تَرْغب نون في كسر اختفائها، في أن تعيش، ربما اليومَ أو غدًا أو بعد غد، أن تَظْهر وتطلبَ الحبّ، ومزيدًا من الحب والغرام، قبل أن تندلع الحربُ القادمة؟

نون تحبّ الحُبّ، وتريد المزيدَ من الحُبّ فالعشق يَصْهل في دمها كما يجري النهرُ في مجراه: هادئًا صاخبًا حيويّاً، نارُه مشتعلةٌ ملتهبةٌ خفيفة.

هي الحبّ نون ولا بدّ، إذن، بعد هذه الحرب، أن ينفجر نهرُ حبّها قويّاً هادئًا هادرًا صاخبًا رقيقًا حيويّاً مشتعلاً دافقًا

صفّارة الإنذار أو الزاعوق

في الحرب الاخيرة كانت صفّاراتُ الإنذار تَزْعق عاليًا. في البداية أَوجعتْ آذانَنا وقلوبَنا وأرواحَنا، وربما أوجسنا خيفةً منها قليلاً من دون أن نركض إلى الملاجئ وكيف نركض إلى الملاجئ ونحن لا نَعْرف كيف تكون الملاجئ؟! كانوا، هم، قد أحسنوا الاستعدادَ للحرب، فيما نحن نبقى داخل الحرب وخارجَها لأنّنا نعيش بلا ملاجئ

بعد أيام صرنا نَسْمع الصفّارة تدوّي عاليًا، ومعظمُنا يبقى في مكانه. البعض يردِّد غاضبًا: «ضرب الزاعوق، اللّه يستر!» كأنّهم، بقولهم هذا، كانوا يعملون على استبعاد شرِّ الصاروخ القادم من البعيد والذي سيَسْقط على مكانٍ ما أو تعلو أصواتٌ متسائلة بما يُشْبه القنوط «أين سقط هذا الصاروخ يا ترى؟» من دون أن نَحْسب أنّه قد يَسْقط علينا.

هكذا تابعنا حياتَنا من دون أيّ ركض، وسمعنا الزاعوقَ يصرخ مولولاً، لكنّنا مكثنا في أمكنتنا، في بيوتنا، في غرفنا المكشوفة، في حياتنا العادية العارية من أية حماية، ورحنا نتساءل «أين سيسقط أو سقط الصاروخ؟» كأنّنا كلَّ مرة كنّا نريد أن نتأكّد، بعد سقوطه، أنّه لم يسقطْ علينا

الصفّارات تزعق، أحيانًا كانت تصلنا صفّاراتُ القرى المجاورة، فتختلط الأصواتُ في عويلٍ طويلٍ كئيب، ونَصْمت وننتظر

❖ - كاتب فلسطيني من الجليل

الآن، وبعد أنْ صمتتْ صفّاراتُ الإنذار مؤقّتًا، هل صار يُرْعبنا هذا الصمتُ المشوبُ بحذرٍ وخوفٍ من مستقبلٍ قريبٍ يحمل في طيّاته حربًا جديدة؟

هل اعتدنا صوتَ الزاعوق حتى صرنا نَحْمل في داخلنا زاعوقًا ينفجر مولولاً، من دون ضابطٍ أو رادع؟

جـثـث

من على شاشة إحدى الفضائيات العربية يَسْتصرخ رئيسُ اتحاد بلديّات صُور البشرَ والضمائرَ الحية أَنْ «ساعدونا على إنقاذ القرى من الدمار المرعب الذي حَلّ بها.» ويَذْكر، من بين الأشياء الكثيرة التي حصلتْ لتلك القرى، أنّ معظم أهاليها نزحوا منها طلبًا للحماية ولجأوا إلى أماكن آمنة (هذا إذا ظلت ثمة أماكنُ آمنة في لبنان)، وأنّ مَنْ بقي منهم في قراهم يتعرّضون للقصف والحصار. أما الجثث الموجودة تحت الأنقاض، فلا أحد يستطيع أن يخرجَها ويدفنها، حتى باتت الكلابُ تأكلها. والبرّاداتُ امتلأتْ بالجثث، والأحياءُ لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا. ناهيك عن النقص في المؤن وكلِّ الضروريات

ولا أحد يمدّ العون

مجـازر

قانا معجزةُ المسيح الأولى، ويده الممدودة للسلام والعجائب دائمًا. قانا الخبز والسمك والنبيذ. قانا سيّدة الحزن الجليل. قانا لا تَصْمت. بين حرب وحرب، تنمو ورودٌ حزينةٌ على قبور شهداءٍ جدد.

في كلّ بضعة سنين، وبين قصفٍ جويّ وآخر، تقع مجزرةٌ جديدةٌ في قانا. بين حرب وأخرى تتكرّر المشاهدُ ذاتُها: مجازرُ جديدة، أشلاءُ، أطفالٌ، شيوخ. كلُّهم يتّكئون على موتهم الحزين، متعبين من قصفٍ جنونيٍّ لا يرحم أحدًا منهم. من بين الردم، تُسحب جثةُ طفل كاميرات تصوِّب عدساتها عليها.

قانا الجريحة، أما زالوا يَسْحبون الجثثَ من بين الردم؟

رسالـة

إحدى القنوات الإسرائيلية تبثّ المشهدَ التالي مجموعةٌ من الأطفال الإسرائيليين يبتسمون وهم يكتبون بالإنجليزية على الصواريخ التي ستُطْلق على لبنان الكلماتِ التالية: «هدية من أطفال إسرائيل إلى أطفال لبنان.»

للحظة، يشكّ بعضُ المشاهدين في أنّ هذا المشهد ليس إلاّ مشهدًا رديئًا من أحد الأفلام الهوليوودية التي يفضّل أو يجب ألاّ يراها الصغارُ، وأنّه قد دُسّ عن طريق الخطإ في نشرة الأخبار العبرية. لكنْ بعد أن يَفْرك المشاهدون عيونَهم ليتأكّدوا من صحةِ ما يرَوْن، وبعد أن ينتقلوا إلى قناةٍ إسرائيلية أخرى للمزيد من التأكُّد، يُقطع الشكُّ باليقين التامّ: فالمشهدُ ذاتُه على القناة الأخرى، والبسمةُ عينُها على وجوه الأطفال الإسرائيليين، والكتابةُ على الصواريخ هي هي.. كما لو أنّهم كانوا يقومون بعملٍ عاديّ جدّاً يبعث على البهجة والسرور

بعد أيام قليلة على هذا المشهد تقع مجزرة، ويكون معظمُ ضحاياها من الأطفال. فالرسائل لا بدّ أن تصل!

القـاع

عمّال يكسبون خبزَهم بعرق جبينهم، وبأيديهم المثخنة بجراح التعب، وبأرواحهم المثقلة بالهموم. قنبلة تُرديهم قتلى، وتتركهم جثثًا لعائلات لا تَمْلك إلاّ أيديَ معيليها، الذين قُتلوا في عزّ دين شغلهم من أجل تحصيل لقمةِ خبزٍ شريفة.

كانت لقمةُ الخبز مغموسةً بالعرق والتعب والهمّ. أما في الحرب الأخيرة فصارت مغموسةً بالدم.

صورة •

أحياء بكاملها مهدّمة جسور. بيوت. صورة كبيرة مهيبة معلّقة للسيد حسن نصرالله على حائط ما زال صامدًا أحياء تدلّ على أنّها دُكّت بقوةٍ حتى اختفت كلُّ مظاهر الحياة فيها. في تلك اللحظة، بدت صورةُ حسن نصرالله كأنّها تقاوم كلَّ أنواع الدمار.

بكـاء ،

رئيسُ حكومةٍ يبكي متفجّعًا على مقتل الأطفال والشيوخ والنساء، وعلى الدمار في لبنان

عين تبكي، وقلب يَنزف.

إبكِ أيُّها الرئيس! يَعيبون عليك بكاءَكَ فقط. ولكنْ لا أحد يمدّ يدَ العون. لا أحد يساند لبنان. . إلاّ لبنان.

ورد

على الشرفة، تَذْبل أوراقُ الوردة التي كان يُعتنى بها وتُسقى دائمًا. مَنْ يسقي الوردَ الآن؟

حـيفـا

حيفا تُقصف وادي النسناس، قلبُ حيفا العربي القديم، يصاب صديقٌ لبناني يرسل لي رسالةً عاجلةً بالبريد الإلكتروني «ديروا بالكو على حالكو!»

ونحن هنا، ماذا سنقول لكم؟!

ترتيلة

«يا ربَّ السلام أَمطرْ علينا السلام / يا ربَّ السلام امنحْ بلادَنا السلام / يا ربَّ السلام أَمطرْ علينا السلام / يا ربَّ السلام امنحْ بلادَنا السلام »

ما الذي تُمطره السماءُ هذه الأيام يا ربي؟

إنّها سماءٌ أخرى، جديدةٌ مختلفة، تُمْطر قنابلَ عنقوديةً وذكيةً ومتطورة جدّاً، وتحصد أرواحَ بشرٍ أبرياء.

طـفـل

طفلٌ فلسطيني يصرخ «إحنا ما بدنا الحرب، بيكفي! احنا بدنا السلام!»

ويبتسم ابتسامةً عريضةً، فرحًا بما قاله.

١٩٤٨

النازحون من قراهم في الجنوب لا يَحْملون سوى أرواحهم معهم، وبقايا ذكرياتٍ طازجةٍ حميمةٍ عن بيوت دُمرّتْ وحيواتٍ قد تُفْقد بفعلِ قصفٍ صاروخيّ مجنون. بعضُ بيوتهم أو قراهم تسوّى بالأرض.

عجوزٌ فلسطيني يدبّ الصوتَ من قراقيع قلبه: «بدّك ما يكون هذا هجيج ثاني زيّ هجيج الـ ١٤٨!»

تَسْقط حبّاتُ عرقٍ باردة من جبينه المكلَّل بتجاعيد المآسي التي عاشها، وينظر إلى عيون الحاضرين، ويستدرك قائلاً بنبرة عزاء وهو يَمْسح عرقَه. «أكيد لا بدّ يرجعوا لقراهم وبيوتهم بعدين. . إذا بقيتْ بيوتهم محلّها!»

أشلاء

كاميرات التلفزيون تصوِّر أشلاء. أشلاءَ بشر. أشلاءَ بنايات. أشلاءَ حجر أشلاءَ حيوات. أشلاءَ هواءٍ معبّأ بالقصف والدمار. أشلاءَ لبنانية أشلاءَ بنايات كانت مؤلّفة من طوابق عديدة سقطتْ كما لو كانت علبةَ كبريتٍ صغيرة وتناثرتْ في كل مكان

كالعنقاء تُبعث الأشلاءُ وتستمرّ في المقاومة من أينَ يخرج هؤلاء المحاربون الأشاوس الذين لا يموتون؟! ألا يموتون؟! أشلاءُ بشرٍ وشجرٍ وحجرٍ وماءٍ وهواءٍ ودم فكيف للشلو أن يظلّ يقاوم؟!

أسماء

وزير الدفاع عمير بيرتس يقول: سأجعل حسن نصرالله لا ينسى اسمي بالمرة!

بعد هذه الحرب، سينام وزيرُ الحرب العمّالي عمير بيرتس قريرَ العين، لأنّ أحدًا لن ينسى اسمَه.

نهيق

يخيّل إليّ أنّي أسمع صوتًا أليفًا. يَنْبض قلبي بدم جديد وأتروحن. أصيخ السمعَ في عزِّ دينِ الحرب وصفّاراتِ الإنذار: أهو نهيق حمار؟!

أيعقل هذا بعد أن غابت الحميرُ الحقيقيةُ الجميلةُ عن حياتنا التي صارت منذ سنين عديدة خاويةً جافةً وتافهة؟

تعود إلى ذاكرتي اليونانُ، والحميرُ المنتشرةُ التي التقطتُ لها مئاتِ الصور هناك. أتحوّل إلى آذان صاغية. أيجرؤ حمار على أن يكسر حدةَ هذه الحرب؟ وأين هي الحمير؟ وهل ارتعب حمارٌ ما من الجوّ الجديد الغريب على البشر والحيوانات، فهرب وبَلَغَ بلدتَنا وصار ينهق نهيقَ رعبٍ واستغاثة؟

ذاتَ يوم كانت الحميرُ تنتشر في بلدتنا انتشارًا كبيرًا، وكانت بديلاً لطيفًا وظريفًا لوجة السيارات التي اكتسحتْ حياتَنا وجعلتنا نشتاق إلى رؤية ولو حمار واحد. أُصغي وأُصغي بكلِّ ما فيّ من قوة وشوق إلى الحمير التي تجعلني إنسانًا سعيدًا. لكنْ، شيئًا فشيئًا، تتضاءل سعادتي. ويتّضح لي الأمرُ تدريجيّاً:

يبدو أنّ الصوت كان صوتَ شاحنة أو ماكينة ما (وحسنًا أنّه لم يكن صوتَ صاروخ). وربما بسبب الحرب وضغطها أُصبتُ ببلبلةً أو هذيان خفيف بَعَثَ الفرحَ في قلبي ولو لثوانٍ، صحوتُ بعدَها على خيبة أملٍ جديدة، وسقطتُ في وهدة الواقع المكفهرّ.

كم اشتقتُ إلى نهيق الحمير! كانت حتمًا ستكون أعجوبةً كبيرةً لو سمعتُ نهيقَ حمار في زمن الحرب ويَخْطر لي خاطر جميل.

ألا يستطيعون أن يستعيضوا عن زعيق صفّارات الإنذار بنهيق الحمير الجميل الدافئ المؤنس؟ لو تداركوا الأمرَ وفعلوا، فمن المؤكّد أنْ سيكون وقعُ نهيق الحمار على آذان الناس أهونَ وألطفَ وأسلسَ وأجمل. وإذا كانت هناك ميتةٌ بالمرصاد، فستكون حتمًا أرحمَ وأنبلَ وأجمل

الحب

قبل هذه الحرب، بعد هذه الحرب، وإلى الحرب القادمة، وإلى ما بعد الحرب القادمة سيكون الحبُّ عزاءَنا الوحيدَ في هذه الحياة..

وربما سنذهب إلى البحر أيضًا.

الجليل (٢٧ آب ٢٠٠٦)